«النيـــل»

تعيد مجدنا البحرى

لكاتب كبير

بعد أيام قلائل — فى يوم الجمعة ١٥ يونيه — تسير الباخرة المصرية «النيل» من ثغر الاسكندرية الى نابل (نابولى) ثم الى مرسيليا. وهذه الرحلة الأولى لباخرة مصرية كبيرة فى عباب البحر الأبيض المتوسط، يجب أن تثير فى نفوسنا كثيراً من الذكريات المجيدة. ذلك أن «النيل» تصل بهذا الفتح البحرى الميمون ما انقطع من عصور السيادة البحرية المصرية فى لجة هذا البحر الخالد؛ فمنذ قرون بعيدة كانت مصر تتبوأ فى التجارة البحرية، كما تتبوأ فى القوى البحرية مركزاً ممتازا، وكانت السفن المصرية تتردد بين الاسكندرية ودمياط وبين ثغور الشرق حتى قاصية البحر الأسود، والثغور الايطالية، ثم ثغور المغرب والأندلس فى الطرف الأخير من البحر الأبيض المتوسط، وكانت تساهم بأعظم قسط فى النقل البحرى ما بين أوربا والشرق، وتمر بثغورها معظم تجارة الشرق الأقصى. وكانت بين الاسكندرية وقسطنطينية، وبينها وبين البندقية وجنوة خطوط بحرية منظمة، والسفن المصرية تقطع لجة هذه المياه ذهاباً وإيابا، وعلم مصر الاسلامية دائم الخفوق فى هذا العباب

ولقد تبوأت مصر الاسلامية مركزاً ممتازاً فى السيادة البحرية منذ القرن الأول للهجرة؛ وكانت السفن المصرية والبحارة المصريون عماد الفتوحات الاسلامية البحرية الأولى فى شرق البحر الأبيض: فى رودس وقبرص واقريطش؛ وكان العرب قبل فتح مصر يخشون البحر وأهواله، فلما فتحوا مصر، وأدركوا أهمية مركزها البحرى، اتخذوا من الاسكندرية قاعدة لحشد الأساطيل، والفتوحات البحرية؛ وكان لبحارة الاسكندرية شهرة خاصة؛ وكانت تدرب بينهم خيرة الضباط والجنود البحريين. ولما سار العرب لحصار قسطنطينية للمرة الرابعة سنة ٩٩ هـ (٧١٧ م)، وحل بهم الضيق تحت أسوار المدينة المحصورة، حشدت سفن المدد فى الاسكندرية، وسيرها البحارة المصريون الى مياه المرمرة. وكان للسفن المصرية والبحارة المصريين دائماً أكبر نصيب فى الفتوحات البحرية التى كانت تسير الى ثغور الدولة البيزنطية وجزائر بحر ايجه. وظهرت براعة المصريين البحرية فى عشرات المعارك أثناء الحروب والحملات الصليبية التى كانت تهبط دائماً على الشواطئ المصرية، فى الاسكندرية ودمياط، ثم فى يافا وعسقلان وعكا، وقد كانت يومئذ ثغوراً مصرية. وتاريخ مصر الاسلامية حافل بهذه الصفحات المجيدة من تاريخنا البحرى.

أما عن الملاحة التجارية فقد كانت مصر الى جانب البندقية تتبوأ مركز الزعامة والسيادة فى البحر الأبيض المتوسط، وكانت البندقية تسيطر على الطرق الشمالية والشرقية الى ثغور المرمرة والبحر الاسود، بينما كانت مصر تسيطر على الطرق الجنوبية، والجنوبية الشرقية؛ وكانت العلائق بين الثغور المصرية، والثغور الايطالية ولاسيما البندقية وبارى ونابل وجنوه فى منتهى الانتظام، وكانت المعاهدات التجارية والبحرية تعقد بين مصر والدول الايطالية فى كل العصور والدول. ولم تفقد مصر أهميتها البحرية والتجارية إلا بعد اكتشاف طريق الهند فى أواخر القرن الخامس عشر، ثم الفتح العثمانى الذى انتهى بالقضاء على جميع قواها ومواردها وحضارتها الزاهرة.

وفى عصر محمد على استعادت مصر شيئاً من نشاطها البحرى، فأنشئ الأسطول المصرى، واستأنف البحارة المصريون جهادهم المجيد فى المياه اليونانية. ولكن أوربا النصرانية لم تشأ أن تعود مصر الاسلامية فتساهم بقسط فى السيادة البحرية فى شرق البحر الأبيض، فائتمرت بالأسطول المصرى فحطمته فى «نافارين»؛ وكان محمد على أكثر عناية بانشاء السفن الحربية، فلم تتقدم الملاحة التجارية يومئذ تقدماً يذكر. وكان القضاء على الأسطول المصرى فى نافارين خاتمة عصر قصير من الاحياء البحرى.

وها هى ذى مصر تستأنف اليوم بعد مائة عام أخرى، نشاطها البحرى؛ وتعود البواخر المصرية، فتشق لجة البحر الأبيض جيئة وذهاباً. والفضل فى ذلك يرجع الى نشاط ذلك الصرح القومى العزيز — بنك مصر —؛ وها هى «النيل» تعود فتحمل علم مصر